عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الثانية: معيقات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الثالث: الوقوف عند النظر المجرد دون استحضار معايير الاشتغال
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

الوقوف عند النظر المجرد دون استحضار معايير الاشتغال

مسألة مبدإ التصوف:

لقد ذهب بعض المؤرخين إلى ما يفيد أن بداية التصوف كانت على يد علي بن الحسين زين العابدين[1]، فالكلاباذي مثلا يقول في معرض حديثه عن رجال الصوفية «ممن نطق بعلومهم، وعبّر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله عليهم، علي بن الحسين زين العابدين، وابنه محمد بن علي الباقر[2]، وابنه جعفر بن محمد الصادق[3] رضي الله عنهم».[4]

وهناك من المؤرخين من وصل بداية التصوف بسيرة الحسن البصري[5] وعلمه والذي ورث علم

1. عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ ابْنِ الإِمَامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ الهَاشِمِيُّ السيد، الإمام، زين العَابِدِيْنَ الهَاشِمِيُّ، العَلَوِيُّ، المَدَنِيُّ.. وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ، اسْمُهَا سَلاَّمَةُ سُلاَفَةُ بِنْتُ مَلِكِ الفُرْسِ يَزْدَجِرْدَ. وَقِيْلَ غَزَالَةُ. وُلِدَ فِي: سَنَةَ 38 هـ ظَنّاً. وَحَدَّثَ عَنْ: أَبِيْهِ؛ الحُسَيْنِ الشَّهِيْدِ، وَكَانَ مَعَهُ يَوْمَ كَائِنَةِ كَرْبَلاَءَ، وَلَهُ ثَلاَثٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مَوْعُوْكاً، فَلَمْ يُقَاتِلْ. أحصي بعد موته عدد من كان يقوتهم سرا، فكانوا نحو مائة بيت. وليس للحسين «السبط» عقب إلا منه. توفي سنة 94 هـ ودفن بالبقيع. سير أعلام النبلاء، 4/386-387-399، الأعلام، 4/277.
2. (57 هـ - 114 هـ) السَّيِّدُ، الإِمَامُ، أَبو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ العَلَوِيُّ، الفَاطِمِيُّ، وَلَدُ زَيْنِ العَابِدِيْنَ. كان ناسكا عابدا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. ولد بالمدينة، وتوفي بالحميمة ودفن بالمدينة. الأعلام، 6/270. سير أعلام النبلاء، 4/401.
3. (80 هـ - 148 هـ) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الإِمَامُ، الصَّادِقُ، شَيْخُ بَنِي هَاشِمٍ، أَبو عَبْدِ اللهِ القُرَشِيُّ، الهَاشِمِيُّ، العَلَوِيُّ، النَّبَوِيُّ، المَدَنِيُّ، أَحَدُ الأَعْلاَمِ. وَأُمُّه: هِيَ أُمُّ فَرْوَةَ بِنْتُ القَاسِمِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ أَبِي بَكْرٍ التَّيْمِيِّ. كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الامامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لانه لم يعرف عنه الكذب قط. له (رسائل) مجموعة في كتاب، ورد ذكرها في كشف الظنون، يقال إن جابر بن حيان قام بجمعها. مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام 2/126، سير أعلام النبلاء، 6/255.
4. التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 21-22.
5. (21 هـ - 110 هـ) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، وَكَانَتْ أُمُّ الحَسَنِ مَوْلاَةً لأُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ المَخْزُوْمِيَّةِ، وكان أبوه من أهل ميسان، مولى لبعض الأنصار. نَشَأَ الحَسَنُ بِوَادِي القُرَى، وَحَضَرَ الجُمُعَةَ مَعَ عُثْمَانَ، وَسَمِعَهُ يَخْطُبُ، وَشَهِدَ يَوْمَ الدَّارِ، وَلَهُ

التصوف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وراثة لا كسبا، بل إن البعض جعل مستندهم في الخرقة الصوفية أن عليًا ألبسها الحسن البصري، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك إلى الجنيد.

والمتلخص من المسألتين: أي الربط بأهل الصفة والبحث عن مبدإ التصوف من خلال سيرة السلف، أن فيها توجيها واضحا لتاريخ التصوف، وهو توجيه يظل محكوما باعتبارات لا تعكس حقيقة التصوف ولا تفيد في استكناه ماهيته وتحقيق مادته المعرفية والسلوكية، الأمر الذي يفرض منهجيا ضرورة التمييز بين القول الصوفي والمقول التاريخي.

إن التصوف تجربة ذوقية متميزة، عبَّر عنها كل صوفي في سياقات سلوكية مخصوصة وفي إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار، وقد حاول العلماء تبين خصائصها العامة وتحديد سماتها المشتركة، وتتلخص الخواص الإجمالية للتصوف فيما يلي:

1- **التخلق أو الترقي الأخلاقي.**

2- **التحقق أو العرفان الذوقي.**

3- **الرمزية أو التعبير الإشاري.**

وبناء على هذه المعطيات عرف التفتازاني «التصوف بأنه فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس الإنسانية أخلاقيًا، وتتحقق بواسطته رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقًا لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية؛ لأنها وجدانية الطباع ذاتية».[6]

ومن هنا يتضح أن التصوف تجربة ذوقية خاصة تنضبط بقواعد الاشتغال وليس للعقل المجرد فيها مدخل؛ بل إن أهل التصوف لا يستسيغون نعت تجربتهم بالتفلسف أو قياسها بمناهج العقل المجرد. يقول أحمد صبحي: «فإنه يحق للصوفية أن يعترضوا على كل من يحاول أن يَزِن تجاربهم وتعبيراتهم بميزان العقل؛ لأن العقل وقوانينه مشترك بين الناس جميعًا، أما التجارب الصوفية فلا تخص غيرهم».[7]

يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً. أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة وكتاب في (فضائل مكة) بالأزهرية. توفي بالبصرة. سير أعلام النبلاء، 564/4، الأعلام، 226/2.

6. مدخل إلى التصوف الإسلامي، لأبي الوفا الغنيمي التفتازاني، ط3: 1979 م، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة. ص 8.

7. التصوف، لأحمد صبحي، دار المعارف، 1984 م، ص 79.

ولقد أشار ابن عربي إلى الوصف الذوقي للمعرفة الصوفية وتعاليها عن قوالب الاستدلال العقلي فقال ناصحا لتلميذه: «إذا طالبك أحد بالدليل والبرهان على علوم الأسرار الإلهية فقل له: ما الدليل على حلاوة العسل؟ فلا بد أن يقول لك: هذا علم لا يحصل إلا بالذوق، فقل له: هذا مثل ذاك».[8]

وإذا كان التصوف تجربة ذوقية خاصة، فمن الطبيعي أن يعبر عنها كل صوفي بوسيلته وطريقته، ومن الطبيعي أن تتباين أساليب تبليغها وتتنوع تبعا لتباين وتنوع التجارب.

أما سلوك أهل التصوف لطريق الإشارة أو الرمزية في التبليغ فذلك أمر تقتضيه طبيعة التجربة الصوفية المفعمة بقيم العمل والسلوك، والتي لا يناسبها في مجال التواصل والتوصيل إلا التعبير الإشاري، الذي يختزن في ثناياه عوامل الإنهاض إلى العمل، والتحقق بالقيم.

8. التدبيرات الإلهية، لابن عربي، طبعة نيبرج، ص 114-115.